لم تكن حياة اليهود سلسلة من الاضطهادات المتلاحقة وإلا لما أمكن لهم الاستقرار وبناء قوة اقتصادية متعاظمة، ناهيكم عن أن الاضطهادات قد شملت الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها كما الجاليات الدينية الأخرى. أما يهود الأندلس حيث استمر الحكم العربي سبعة قرون ويزيد فكان لهم الدور الأكبر وبلغوا أعلى المراتب ولاقوا ما لاقاه العرب بعد دحرهم، والكثير منهم تحول دينيا باتجاه المسيحية، وهذا حال المسلمين من أصل أوروبي الذين بقوا في الأندلس. والأديبة المصرية د. رضوى عاشور في روايتها (ثلاثية غرناطة) صورت هذا المعمعان ببراعة وشفافية.

وعليه، كان العامل الأساس في إذكاء الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين، ليس الاضطهاد، وإن وجد بعضه، ذلك أن اليهود قد حصلوا على حقوقهم المدنية وتراجعت جذريا ولم تعد ذات شأن موجة معاداة السامية (فمعاداة السامية بين ١٨٩٧ – ١٩١٧م كانت في أضعف حلقاتها)[٩٩]. بل المخططات الاستعمارية. ولو ذهبنا للنهايات، أي تحقيق حلم هرتزل بدولة (فإسرائيل واقع استعماري) مكسيم رودنسون، لها وظيفة إمبريالية وهي منذ نشأتها لهذا اليوم (حليف استراتيجي وكنز استراتيجي) ريغن.

وعلى الصعيد الأيديولوجي (لا يلحق العداء للسامية ضرراً باليهود، فهو حركة نافعة لأجل تطوير الفردية واليهودية) هرتزل، و(حين يغادر الدين اليهودي جدران الغيتو يتعرض لخطر فقدان وجوده الجوهري) آحاد هعام. وبن غوريون قال (إن العداء العربي بركة) وفسر الأمر لينين بالقول (لا ريب أن ثمة صلة بين العداء للسامية وبن مصالح الفئات الرأسمالية).

ولا يجوز نسيان أن الصهاينة قد استفادوا من تواطؤ بعض العائلات الاقطاعية التي باع لها الفلاحون أرضهم لتسديد ضرائب السلطات العثمانية ومن تواطؤ ضباط في جهاز الحكم العثماني، إلى درجة أن ينجح الصندوق القومي اليهودي بشراء أكثر من ٤٠٠ ألف دونم خصصها لبناء ٤٥ مستعمرة، والأمر نفسه ينسحب على شراء أراضٍ في ١٧ قرية في شمال فلسطين من عائلة سرسق اللبنانية.

تسارع تكون المسألة الوطنية الفلسطينية في علاقة اضطرادية تناقضية مع تسارع موجات المشروع الصهيوني، ودار الصراع بين زمنين: زمان الرأسمالية التي انبثقت من أرحامها الصهيونية بإمكاناتها وعلومها ومشروعاتها الاستعمارية، وزمان ما قبل الرأسمالية، إلى ما هو قريب من العقلية الفلاحية والجبرية وأدواتها البسيطة.

---

٩٩) د. الحوت، المرجع السابق. ص٢٥٦